

جامعة غليزان كلية الآداب واللغة العربية

الأستاذ : خليفي حاج أحمد

محاضرات في نظرية الأدب

تمهيد

يتصدى الدارس الأدبي في بداية عمله، إلى تصنيف المادة الأدبية من غيرها، ويتم مثل هذا الأمر، في الأغلب بشكل آلي تقريبا، فهناك أعمال أدبية تفصح عن نفسها مثل الرواية والمسرحية....الخ، أصبح لها حدود متفق عليها بشكل عام.

ولكن إذا حاول الدارس الأدبي أن يسأل مثلا أسئلة من نوع: ما الذي يميز الأدب عن غيره ؟ وما الذي يجعل من العمل الأدبي عملا أدبيا ؟ فإنه سيواجه صعوبات ومشكلات متعددة، لأن الإجابة على هذه الأسئلة تبدو بسيطة في البداية ولكن معقدة في جوهرها، تتباين من ناقد إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، فهي تعني البحث عن خصائص الأدب ومصدره ومهمته.

فهناك عدة مفاهيم للأدب لم يتفق الدارسون له على مفهوم واحد، بل كل واحد منهم ينظر إليه من زاوية معينة وفق السياق التي تسير في الظاهرة أو الأمر الذي يريد الدارس معالجته.

ولكن مفهوم النظرية هو مفهوم ثابت مادام يعني بمجموعة من الأفكار والآراء القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة أو واقع في الوجود . والتي تهتم بالبحث بالأدب ونشأته وتطوره ووظيفته. ومن هنا تتحدد أغلب النظريات التي تعنى بالأدب وتطوره من خلالها ويظهر في نماذج فكرية وعقلية ومستويات من درجات التفكير . ومن هنا تعددت النظريات الأدبية التي أصبحت فيما بعد تعنى بالنصوص الأدبية كما أصبحت منهاجا لتحديد اتجاهات الأدب ومن بين هذه النظريات نظرية المحاكاة ، نظرية التعبير ، نظرية الخلق ، ونظرية الإنعكاس.

نظرية المحاكاة :

1/ عند أفلاطون

ظهرت نظرية المحاكاة _ أول نظرية في الأدب في القرن الرابع عشر قبل الميلاد - وقد صاغ مبادئها أفلاطون ثم من بعده تلميذه أرسطو ، وقبل هذا التاريخ بكثير نعث على آراء متفرقة وأقوال متناثرة تدور حول طبيعة الأدب ووظيفته ، فغاية الشعر عند هوميروس هو الإمتاع والمؤانسة الذي يولد نوعا ن السحر ، أما هيود فيرى الشعر هي "التعليم أو نقل رسالة سماوية" و الحقيقة أن الصراع بين الشعر والفلسفة كان قد بدأ منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وقد بدأ هذا الصراع بنقد الشعر والدفاع عنه على أساس أخلاقي ، فالشعر مجاز لغز يحجب الحقائق العلمية والأخلاقية ومن الممكن القول بأن كل هذه الآراء القديمة وهذا الصراع يشير إلى وجود آراء نقدية أخرى ربما لم تصلنا ، غير أن كل ذلك إضافة إلى أوضاع أثينا المنهارة ، قد مهد الطريق لظهور آراء أفلاطون حول الشعر ، و الفن عامة هذه الآراء التي تعد بداية في تاريخ نظرية الأدب .

ويرى أفلاطون في مفهومه للمحاكاة أن كل الفنون قائمة عل التقليد (محاكاة للمحاكاة) ويتعلق هنا من إيمانه بالفلسفة اليونانية التي ترى أن الوعي أسبق من الوجود ، وان الكون ينقسم إلى عالم مثالي وعالم محسوس

وهذا المفهوم سيطر على التفكير النقدي على مدى عصور وأصبح يتميز بين المدارس الفنية والأدبية والنقدية التي ظهرت في تاريخ الفنون والآداب في الغرب والشرق. والمحاكاة لغة تعني مماثلة ومجانسة العمل الفني لشيء نعرفه، وهي تشكل جوهر علاقة العمل الفني والأدبي بالواقع .

فأفلاطون يرى أن المحاكاة هي أسلوب من أساليب القول ولخطاب الظاهري ، وقد ميز بين أسلوبين للقول : السرد أو القول غير المباشر اللذان يشملان الحوار الموجود في الملحمة وكذلك الحوار في المسرح ، أما السرد ، فليس فيه لأنه عبارة عن ذكر لحدث وقع في الماضي . وقد رفض أفلاطون المحاكاة من وجهة نظر فلسفية ، وعلى أساس هذا الرفض استبعد الشعراء من مدينته الفاضلة لأنهم يخاطبون الناس بعواطفهم. كما رفضها من وجهة نظر تربوية على اعتبار أن محاكاة الشعراء للواقع هي تقليد لتقليد ونسخة عن نسخة، بمعنى أن العمل المحاكي هو محاكاة للشكل الظاهر وليس للمضمون التي لا يمكن للشعراء الوصول إليها . بل يصل إليها فقط الفلاسفة وحراس القوانين.

ينطلق أفلاطون في نقد الشعر لمضمونه وشكله ، فالشعراء أساؤا تقديم ما هو عاطفي ثم قال بتأثير ضار للشعر على الأخلاق.(1)

وتناول أفلاطون قضية نقد الشعر من حيث ما هو عاطفي مسؤول عن الخير وحده لا عن الشر وأنه لا يتغير قط ولا يكذب أو يخدع.

فالشعر الذي يشجع الإغراق في العاطفة ينبغي أن يحظر إلى جانب أي شيء قد يضعف الاعتماد على النفس والشرف ويجعل النفس مستلمة ومنهارة ، وبالرغم من عدم ذكره للتراجيديا فخلافه بين مع الشعراء التراجيديين يصبح جلياً: فالشعراء وغيرهم من الرواة "يتحملون وقع أخطر ألوان التضليل حول حياة البشر ، يجعلون بها الخطأين سعداء والخيرين بؤساء...ويرون أن عدالة المرء تجعل منه الطرف الخاسر فيما يستفيد الآخرون. سيتعين علينا أن نحظر مثل هذه القصائد والقصص ونأمرهم بأن ينشدوا ويقصوا نقيضها". (2)

وفي تعريف التراجيديا يقول:" أن الشاعر التراجيدي هو محاك وممن ثم فإنه شأن المحاكين الآخرين جميعا منحى ثلاث مرات عن عرش الحقيقة" (3) وما يشير إليه أفلاطون هنا أن

التراجيديا تنتمي إلى المستوى الثالث كاللوحات، كما صنفها أفلاطون . حيث يقول: " فلنصف من يحتل المرتبة الثالثة في الهبوط عن الطبيعة بأنه محاكي " (4) .

ويرد ف قائلاً أفلاطون : " لو أن أيا من الشعراء الجادين , كما يطلق عليهم الذين ينظمون التراجيديا جاء إلينا وقال : " آه يا للغرباء ! هل لنا في أن نمضي إلى مدينتكم وبلادكم آم أن ذلك لم يسمح به لنا , وهل نجلب معنا شعرنا ؟ أعتقد أن ردنا سيكون : يا خير الغرباء ، إننا أيضاً شعراء تراجيديون بقدر ما في وسعنا، وتراجيديتنا هي الأفضل والأنبل ، لأن دولتنا بأسرها هي محاكاة لأفضل حياة وأنبلها، وهي ما تؤكد أنه حقيقة التراجيديا بذاتها . أنتم شعراء ، ونحن شعراء... متنافسون وخصوم في أنبل دراما ، القانون وحده يتمها كما نأمل . فلا تفترضوا إذن أننا سنسمح لكم في لحظة بأن تقيموا خشبة مسرحكم في الساحة العامة ، أو نقدم أصوات ممثلينكم الجميلة لتعلو على صوتنا ، ونسمح لكم بأن تخاطبوا نساءنا وأطفالنا والعامة فيما يتعلق بمؤسساتنا، بلغة غير لغتنا ، وغالباً بلغة تناقض لغتنا ، فسيكون جنوناً من الدولة أن تمنحكم هذا التصريح قبل أن يقرر القضاة ما إذا كان شعركم يمكن أن ينشد وما إذا كان مناسباً للتداول من عدمه . يا أبناء وسليبي ربة الفن، اعرضوا أولاً أناشيدكم على القضاة ودعوهم يقارنوها بأناشيدنا ، فإذا كانت تماثلها أو تفوقها فسنقدم لكم جوقة، أما إذا لم تكن يا أصدقائي فليس بمقدورنا " . (5)

وأعتقد أن الفقرة السابقة تقرّ بأن التراجيديا هي محاكاة للحياة و للواقع .

وقد إعتد أفلاطون على متناقضات عدة في محاورات أسلوب شعري مميز ، كما فيما بعد عاد ورفض مقولته في المحاكاة ، فكان هوميروس أول شاعر تراجيدي عظيم وحينما كان أفلاطون يكتب هو نفسه آخر شاعر تراجيدي عظيم .

" عند سؤال سقراط عن ماهو فن التقليد (المحاكاة) فأجاب : خذ الكرسي مثلاً أو الخوان . قلنا في الأول .

1- مثل الكرسي أو أرسمه على ما خلقه الله .

2- الكرسي الذي صنعه المنجد .

3- الكرسي الذي رسمه الفنان .

وهو نسخة عن المثل الثاني . وهذا بدوره نسخة عن المثل الأول . وبالطريقة نفسها يقلد الشاعر ، وليس المثل فقط وهي اليقينيّات الوحيدة ، بل ظاهرات الحياة اليومية ، والآراء الذائعة بين المهذّبين بعض التهذيب " (6)

نرى أنه " لقد حاول أفلاطون في "الجمهورية" و "القوانين" كليهما أن يرينا كيف أن الأمور يمكن ترتيبها بحيث يقضي على التراجيديا، وذلك لا من حيث كونها شكلاً أدبياً أو من أشكال التسلية فحسب وفي معرض الرد على أولئك الذين يرفضون علاجاته مفضلين العنصر السقراطي فيه على العنصر الفيثاغورسي، وتصويره للفرد الفخور الساخر بصورة المجتمع "العادل"- يقول: إن استشهاد وموت الإنسان العادل حقاً هما انتصار يبلغ من الجلال أنه لا يعود هناك مجال على الإطلاق للنحيب أو الخوف أو الإشفاق " (7) .

2/ عند أرسطو:

ومهما يكن الأمر فإن أفلاطون يعد بحق أو منظر للفن والأدب في التاريخ وقد أستطاع تلميذه أرسطو أن يضع أول كتاب نقدي في تاريخ البشرية هو كتاب الشعر ، وهذا الكتاب يعد تعليقا غير مباشر على كتابات أستاذه أفلاطون مع أنه لم يذكر أسم أستاذه صراحة ، ولابد من التنويه أن كتاب الشعر قد هيمن على العقل الأدبي والنقدي لمدة تزيد على ألفي عام ، وظل أساس النقد الإنجليزي حتى أواخر القرن الثامن عشر ولا تزال آراءه لحد الساعة يعتمد عليها الكثير من النقاد والدارسين .

الشعر شكل من المحاكاة:

يرى أرسطو أن الشعر نوع من المحاكاة ، فهو يستخدم المصطلح ذاته الذي استخدمه أفلاطون ، لكن أرسطو يرى أن الشعر يتصرف في الشيء الذي يراه فإما يزيد فيه أو ينقص منه فهو يتصرف في هذا المنقول بأن لا يحاكي ما هو كائن بل يحاكي ما يمكن أن يكون

والمحاكاة تلك الفكرة التي نعبر عنها تعبيراً مبهما حين نقول عن الشاعر أو الأديب إنه مرآة عصره أو حين نقول عن الأدب والفن كافة: إنه يعكس واقع الحياة ممزجا برغبات الإنسان وآماله ومعتقداته ، فهذا في الواقع تعبير أدبي موجز عن معنى المحاكاة عند أرسطو إذ ليست المحاكاة عنده مجرد تقليد للواقع الخارجي بل أنه يقر بصراحة ما كان أو يكون فحسب بل هي أيضا ما يقدر كونه ، وما يعتقد أنه كان وإن لم يكن في الحقيقة.

حيث أن أرسطو 384-322 ق م ، قد أخذ موقفا مختلفا من مفهوم المحاكاة التي اعتبرها غريزة طبيعية لدى الإنسان ، ورأى فيها أساسا لكل عمل فني (الشعر وغيره من الفنون) إذ يقول : " إن شعر الملاحم وشعر التراجيديا وكذلك الكوميديا والشعر المدائحي (الديرامب) ، وإلى حد كبير النفخ بالناي واللعب بالقيثارة كلها أنواع من المحاكاة " (8)

وأن كل الفنون عن بعضها البعض من خلال أسلوب المحاكاة : "إما باختلاف ما يحاكي به ، أو باختلاف ما يحاكي ، أو باختلاف طريقة المحاكاة " (9)

فهو يرى أن المحاكاة تكون على شكلين : محاكاة الفعل بالفعل ، أو محاكاة الفعل بالرواية عنه . ولذا فهو لا يفرق بين النص المسرحي والنص الملحمي من خلال درجة المحاكاة وإنما من خلال اختلاف أسلوب المحاكاة . ويذهب أرسطو أبعد من ذلك إذ يعتبر أن المحاكاة هي سبب المتعة في المسرح ، وأن وجود الجمهور هو دليل على المتعة التي يشعر بها من يتابع المحاكاة .

فمفهوم المحاكاة عند أرسطو يبقى عملية التقليد المباشر للواقع من خلال المحاكاة ، ولم يتكلم كذلك عن الإيهام بالواقع ، وإنما تناول ماهية المحاكاة من خلال تفصيله لبناء التراجيديا ، ومن خلال تحليله لتأثيرها على المتفرج (تمثل خوف وشفقة تطهير) .

والفعل عند أرسطو ليست مجرد تصوير للأحداث وإنما إعادة ترتيبها في الخط الناظم للمسرحية وهو الفعل الدرامي مما يؤدي أن المحاكاة عنده ليس كتقليد أو كتصوير وإنما كخلق وإبداع

فهو على اختلاف أفلاطون ، فإنه جعل المحاكاة للشخصيات والانفعالات والأفعال ، وليست محاكاة للأشياء المحسوسة . أي لدنيا الحياة العقلية داخل الإنسان . فالموسيقا والرسم في محاكاته لأشياء طبيعية . وفنون المحاكاة تختلف في وسائل المحاكاة ، وفي موضوعها وفي طريقتها . أما فيما يختص بالوسائل فإن الرسم يحاكي الأشياء التي يصورها بالألوان والرسم . والموسيقى تحاكي بالأصوات إيقاعاً و انسجاما . والفنون القولية من نثر وشعر تحاكي الأشياء بالكلام . ومنها ما يستعين مع الكلام لوسائل الفنون الأخرى من إيقاع ولحن ووزن ، كالتراجيديا والكوميديا . وتختلف هذه الفنون كذلك في موضوع محاكاتها أي مضمونها : فالرسم والموسيقى يحاكيان الأشياء والأصوات . والشعر يحاكي أفعال الناس . بمعنى أن جميع أنواع الشعر المأساوي والملحمي والهزلي والديثورامي تقوم على المحاكاة . وباستطاعة الإنسان أن يعرض وجوها مختلفا من الأوضاع الحقيقية أو المتخيلة بوحدة مسن طرق عدة . وأنواع الشعر تتباين تبعا للأداة التي تصطنعها ولوجوه الحياة الحقيقية أو المتخيلة التي تمثلها وبالطريقة التي يتحقق بها هذا التمثيل .

الفرق بين التراجيديا والكوميديا عند أرسطو تأتي من الزاوية التي يخضع فيها أرسطو كل أنواع الشعر لهذا التفاوت في محاكاة الناس في فعلهم . فمن الأجناس البشرية ما يحاكي الأعمال الفاضلة ، كالملمحة والتراجيديا والمدائح . ومنها ما يحاكي الأعمال المرزولة كالكوميديا والهجاء . إذن المحاكاة ليست رواية الأمور كما وقعت بل رواية ما يمكن أن يقع ، "لأن

للشيء صورتين :روحانية ،وهي الصورة المحاكية له،وجسمانية وهي صورة الشيء المحسوس نفسه لا الصورة المحاكية له"

فالأدب التمثيلي اليوناني يجعل المحاكاة صورة طبق أصلها مختلفا عن باقي الفنون بذلك إلى طبيعة الأحكام الكلية ،على حين أن أقوال التاريخ تجئ عن أحداث جزئية فردية < (11)

فماذا يحاكي الشعر ؟ يحاكي الناس في أفعالهم وبذلك يتنوع الناس بين ثلاث إما يكون الفاعل سويا مع الطبيعة البشرية أو فوقها أو تحتها ومن هنا يظهر مبدأ التفريق عند أرسطو بين التراجيديا والكوميديا

فالتراجيديا تصوير جوانب سامية من البشر لكن بشرط أن يرتفع البطل عن المستوى المتوسط ، والكوميديا تصوير للجوانب الدنية وهي دون المستوى المتوسط ،وواضح من تقسيمه للموضوعات التي يحاكيها الشعر على أساس خلقي من خلال تصنيفه للناس بين خير وشر ووسط (12) أنه قد تأثر بأفلاطون بربطه بين الجمال والخير .

فتراجيديا لا تقلد الأشخاص وإنما تقلد حركاتها فالغاية أعظم مادامت تتناول الأخلاق عن طريق محاكاة الأفعال، أي تقلد سعادتها وشقاؤها وكل سعادة وشقاء لابد أن تتخذ صورة من صور الحركة .

خاتمة:

إنصب اهتمام نظرية المحاكاة على أثر الشعر في القراء والمتلقين ، وهو جانب هام بلا شك من جوانب الظاهرة الأدبية ، لكن دراسة هذا الجانب خضعت لمعايير أخلاقية ، فأفلاطون يرى إن الشعر مفسد للأخلاق وأرسطو يرى إن الشعر يهدف إلى إحداث توازن انفعالي ونفسي وبالتالي توازن أخلاقي وسلوكي ، وعلى الرغم من تناقض آراء أفلاطون مع آراء أرسطو وتباين منهجيهما ، فإنهما ينتميان إلى الفلسفة المثالية ، وقد اهتمتا كل منهما بالوظيفة الاجتماعية للشعر ووضع مبادئ سرمدية للشعر والفن عموما غير محدد بمكان معين أو

مرحلة اجتماعية مجددة فكلاهما أنكر التعبير في الفن أة في الأوضاع الاجتماعية (13) وهو ما يعبر عنه عن روح الكلاسيكية التي تؤمن أن الأدب الكلاسيكي ، من الممكن أن ينتج في كل مكان وزمان ، وهذا يعني سيادة المنهج الشكلي ، عدم أدراك العلاقة بين الأوضاع الاجتماعية وبين الشكل والمضمون ، فالأدب شكل أو قالب له مهمة دائمة و،حن باستطاعتنا أن نصب في هذا القالب ما نشاء وفي أي زمان وتحت أي ظرف ، ويظهر أن نظرية المحاكاة لم تهتم بذاتية الشاعر أو عواطفه أو أحاسيسه ، بل أهتم بالمحيط والبيئة أكر من المضمون وبالعقل والمنطق أكثر من العاطفة .

وبهذا نرى أن المحاكاة كانت أساس التفكير العقلي دون غير خاصة ما يتجلى ذلك في كتاب الجمهورية لأفلاطون وحتى الآن ما زال هناك جدل قائم حول وظيفة وماهية المحاكاة ودورها في تطور الأدب.

المصادر والمراجع

- 1- أفلاطون : الجمهورية ، تر : حنا خباز ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، د.ت
- 2- أرسطو : فن الشعر ، تر . من السرياني إلى العربي : أبي بشر متى بن يونس القنائي ، تر . حديثة : شكري محمد عياد ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت ، (وزارة الثقافة)
- 3- النساج ، سيد حامد : البناء الدرامي للمأساة عند أرسطو ، مكتبة غريب ، شارع كامل صديفي (في الفجالة) ، د.ت
- 4- كوفمان ، والتر : التراجيديا والفلسفة ، تر: كامل يوسف حسين ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – الأردن ، 1993

5- الياس . ماري ، قصاب حسن . حنان : المعجم المسرحي ، بيروت ، لبنان ، مكتبة لبنان
الناشرون ، 1997

6- باندولفي . فيتو : تاريخ المسرح ج1، تر: الأب الياس الزحلاوي ، منشورات وزارة الثقافة
و الإرشاد القومي ، دمشق ، 1979

7- مقدمة في نظرية الأدب ، طه محمود ، دار المعارف. مصر / 1987